"وَكَذَلِكَ شَهِدَ اللَّهُ لِنَفْسِهِ بِهَذَا التَّوْحِيدِ، وَشَهِدَتْ لَهُ بِهِ مَلَائِكَتُهُ وَأَنْبِيَاؤُهُ وَرُسُلُهُ. قَالَ تَعالَى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وأولو العلم قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٨، ١٩].

فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ إِثْبَاتَ حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ، وَالرَّدَّ عَلَى جَمِيعِ طَوَائِفِ الضَّلَالِ، فَتَضَمَّنَتْ أَجَلَّ شَهَادَةٍ وَأَعْظَمَهَا وَأَعْدَلَهَا وَأَصْدَقَهَا، مِنْ أَجَلِّ شَاهِدٍ، بِأَجَلِّ مَشْهُودٍ بِهِ.

مَعْنَى الشَّهَادَةِ وَمَرَاتِبُهَا

وَعِبَارَاتُ السَّلَفِ فِي (شَهِدَ) - تَدُورُ عَلَى الْحُكْمِ، وَالْقَضَاءِ، وَالْإِعْلَامِ، وَالْبَيَانِ، وَالْإِخْبَارِ. وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ كُلُّهَا حَقٌّ لَا تَنَافِي بَيْنَهَا".

عبارات السلف - رحمهم الله - في تفسير ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨]: منهم من يقول حكم[١]، ومنهم من يقول

---

(١) وهو قول مجاهد كما في تفسير البغوي (١/ ٤٢٠).

قضى[٢]، ومنهم من يقول أعلم[٣]، ومنهم من يقول بيَّن[٤]، ومنهم من يقول أخبر[٥]، وهي كلمات - كما يقول المؤلف - كلها حق، فكل كلمة تذكر معنى من معاني شهد، فهذه الكلمة تتضمن كل هذه المعاني.

"فَإِنَّ الشَّهَادَةَ تَتَضَمَّنُ كَلَامَ الشَّاهِدِ وَخَبَرَهُ، وَتَتَضَمَّنُ إِعْلَامَهُ وَإِخْبَارَهُ وَبَيَانَهُ. فَلَهَا أَرْبَعُ مَرَاتِبَ:

فَأَوَّلُ مَرَاتِبِهَا: عِلْمٌ وَمَعْرِفَةٌ وَاعْتِقَادٌ لِصِحَّةِ الْمَشْهُودِ بِهِ وَثُبُوتِهِ.

---

(٢) قاله مجاهد والفراء كما في زاد المسير لابن الجوزي (١/ ٢٦٦) وهو قول أبي عبيد البصري كما في مجاز القرآن (١/ ٨٩)، وقد رده الطبري بقوله "فأما ما قال الذي وصفنا قوله: من أنه عنى بقوله: "شهد"، قضى - فمما لا يعرف في لغة العرب ولا العجم، لأن "الشهادة" معنى "والقضاء" غيرها" كما في تفسيره (٦/ ٢٧٢). قال شيخنا -رحمه الله-: الطبري نظر إلى المعنى الخاص، ومن فسرها بالقضاء نظر إلى المعنى العام فالقاضي يشهد بما قضى.

(٣) وبذلك فسره أبو المظفر السمعاني في تفسيره (١/ ٣٠١).

(٤) قاله ثعلب والزجاج في زاد المسير لابن الجوزي (١/ ٢٦٦) وهو قول الواحدي في تفسيره (ص: ٢٠٢).

(٥) ذكر ذلك البغوي في تفسيره (١/ ٤٢٠).

وَثَانِيهَا: تَكَلُّمُهُ بِذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يُعْلِمْ بِهِ غَيْرَهُ، بَلْ يَتَكَلَّمُ بِهَا مَعَ نَفْسِهِ وَيَذْكُرُهَا وَيَنْطِقُ بِهَا أَوْ يَكْتُبُهَا.

وَثَالِثُهَا: أَنْ يُعْلِمَ غَيْرَهُ بِمَا يَشْهَدُ بِهِ وَيُخْبِرُهُ بِهِ وَيُبَيِّنُهُ لَهُ.

وَرَابِعُهَا: أَنْ يُلْزِمَهُ بِمَضْمُونِهَا وَيَأْمُرَهُ بِهِ".

هذه مراتب شهد، فالشهادة تتضمن مراتب:

المرتبة الأولى والثانية: اعتقاد وتصور ونطق. فلا بد أن يكون عندك معرفة بمعنى لا إله إلا الله: نفيا وإثباتا، ثم لا بد من التكلم، وهذا مجمع عليه بين أهل السنة(٦)، فلا بد أن يعتقد وينطق، وإن لم يستطع النطق علنا فلينطق بذلك في نفسه، ويتعبد لله بذلك.

المرتبة الثالثة: أن يُعلم غيره بذلك.

المرتبة الرابعة: أن يُلزم الغير بها. وهذه المراتب الأربع موجودة في قوله تعالى ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨]. وقد أمر

(٦) قال شيخ الإسلام ابن تيمية "من لم يصدق بلسانه مع القدرة لا يسمى في لغة القوم مؤمنا كما اتفق على ذلك سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان". مجموع الفتاوى (٧/ ١٣٧).

الله بالعلم بها في قوله ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وقد أُمر - صلى الله عليه وسلم - أن يأمر الناس بها ويقاتلهم عليها قال «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله »(٧).

"فَشَهَادَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لِنَفْسِهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَالْقِيَامِ بِالْقِسْطِ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْمَرَاتِبَ الْأَرْبَعَ: عِلْمَهُ سُبْحَانَهُ بِذَلِكَ، وَتَكَلُّمَهُ بِهِ، وَإِعْلَامَهُ، وَإِخْبَارَهُ لِخَلْقِهِ بِهِ، وَأَمْرَهُمْ وَإِلْزَامَهُمْ بِهِ.

فَأَمَّا مَرْتَبَةُ الْعِلْمِ فَإِنَّ الشَّهَادَةَ تَضَمَّنَتْهَا ضَرُورَةً، وَإِلَّا كَانَ الشَّاهِدُ شَاهِدًا بِمَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

وَقَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «عَلَى مِثْلِهَا فَاشْهَدْ»، وَأَشَارَ إِلَى الشَّمْسِ(٨).

---

(٧) صحيح البخاري (١/ ١٤) ح(٢٥)، صحيح مسلم (١/ ٥٣) ح٣٦ - (٢٢).

(٨) الضعفاء الكبير للعقيلي (٤/ ٦٩)، ونحوه عند الحاكم في المستدرك على الصحيحين (٤/ ١١٠) ح٧٠٤٥ وهو لا يصح "فإن في إسناده محمد بن

وَأَمَّا مَرْتَبَةُ التَّكَلُّمِ وَالْخَبَرِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]. فَجَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ شَهَادَةً، وَإِنْ لَمْ يَتَلَفَّظُوا بِلَفْظِ الشَّهَادَةِ وَلَمْ يُؤَدُّوهَا عِنْدَ غَيْرِهِمْ".

فلا يشترط في ذلك لفظ (أشهد) وإن كان هذا اللفظ قد ورد به النص كما في قوله ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨]، إلا أن الدعوة إلى التوحيد قد تنوعت ألفاظها في النصوص الشرعية، فالإخبار يعتبر شهادة في اللغة وفي الاصطلاح وقد ذكر المؤلف دليل ذلك في قوله "**فَقَالَ تَعَالَى**: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ

سليمان بن مسمول، وهو ضعيف" البدر المنير (٩/ ٦١٧)، وانظر: تعليقات الدارقطني على المجروحين لابن حبان (١/ ٢٣٧)، قال ابن حجر "أخرجه ابن عدي بإسناد ضعيف، وصححه الحاكم فأخطأ" بلوغ المرام من أدلة الأحكام ت فحل (ص: ٥١٨)، قال ابن حزم "لكن معناه صحيح" المحلى بالآثار (٨/ ٥٣٤).

﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]. فَجَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ شَهَادَةً، وَإِنْ لَمْ يَتَلَفَّظُوا بِلَفْظِ الشَّهَادَةِ وَلَمْ يُؤَدُّوهَا عِنْدَ غَيْرِهِمْ".

"وَأَمَّا مَرْتَبَةُ الْإِعْلَامِ وَالْإِخْبَارِ فَنَوْعَانِ: إِعْلَامٌ بِالْقَوْلِ، وَإِعْلَامٌ بِالْفِعْلِ".

الإعلام نوعان: الأول إعلام باللسان وهو: النطق بكلمة التوحيد ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، والثاني إعلام بالفعل: ومن ذلك ان الله نصب في الكون دلائل وحدانيته ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]، فالكون ينطق أنه لا إله إلا الله، ومنه قول الشاعر[٩]:

تأمل في نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... وأزهار كما الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

---

(٩) هو أبو نواس انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/ ٤٦٥)، تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير(٢/ ٣٣٤).

فهذا شهادة بفعله تعالى، وأما الشهادة بقوله فكما سبق في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

"وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ مُعْلِمٍ لِغَيْرِهِ بِأَمْرٍ: تَارَةً يُعْلِمُهُ بِهِ بِقَوْلِهِ، وَتَارَةً بِفِعْلِهِ. وَلِهَذَا كَانَ مَنْ جَعَلَ دَارَهُ مَسْجِدًا وَفَتَحَ بَابَهَا، وَأَفْرَزَهَا بِطَرِيقِهَا وَأَذِنَ لِلنَّاسِ بِالدُّخُولِ وَالصَّلَاةِ فِيهَا: مُعْلِمًا أَنَّهَا وَقْفٌ، وَإِنْ لَمْ يَتَلَفَّظْ بِهِ[١٠]. وَكَذَلِكَ مَنْ وُجِدَ مُتَقَرِّبًا إِلَى غَيْرِهِ بِأَنْوَاعِ الْمَسَارِّ، يَكُونُ مُعْلِمًا لَهُ وَلِغَيْرِهِ أَنَّهُ يُحِبُّهُ، وَإِنْ لَمْ يَتَلَفَّظْ بِقَوْلِهِ، وَكَذَلِكَ بِالْعَكْسِ.

---

(١٠) هذا مذهب أبي حنيفة انظر: المبسوط للسرخسي (١٢/ ٣٤)، تحفة الفقهاء (٣/ ٣٧٥)، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع (٦/ ٢١٩)، وأما الشافعية فقالوا: "لا يصح الوقف إلا بالقول فإن بنى مسجداً وصلى فيه أو أذن للناس بالصلاة فيه لم يصر وقفاً" المهذب في فقه الإمام الشافعي للشيرازي (٢/ ٣٢٦)، وعن الإمام أحمد في ذلك روايتان الأولى كقول أبي حنيفة، والثانية كقول الشافعية انظر: المبدع في شرح المقنع (٥/ ١٥٢).

وَكَذَلِكَ شَهَادَةُ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ وَبَيَانُهُ وَإِعْلَامُهُ، يَكُونُ بِقَوْلِهِ تَارَةً، وَبِفِعْلِهِ أُخْرَى. فَالْقَوْلُ مَا أَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ. وَأَمَّا بَيَانُهُ وَإِعْلَامُهُ بِفِعْلِهِ، فَكَمَا قَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: شَهِدَ اللَّهُ بِتَدْبِيرِهِ الْعَجِيبِ وَأُمُورِهِ الْمُحْكَمَةِ عِنْدَ خَلْقِهِ: أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

وَقَالَ آخَرُ[١١]:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ   تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

---

(١١) نسب لأبي العتاهية كما في طبقات الشعراء لابن المعتز (ص: ٢٠٧)، تاريخ بغداد ت بشار (٧/ ٢٢٦)، أحسن ما سمعت للثعالبي (ص: ٩)، التمثيل والمحاضرة له أيضا (ص: ١١)، زهر الآداب وثمر الألباب (٢/ ٣٨٧)، ونسب لأبي نواس كما في المحاسن والأضداد (ص: ١٦٨)، وفيات الأعيان (٧/ ١٣٨)، ونسب للبيد كما في محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء (٢/ ٤١٠)، ونسبه لنفسه عز الدين المقدسي كما في كتابه كشف الأسرار في حكم الطيور والأزهار (ص: ٤٥)، وقد نسبه ابن كثير مرة لابن المعتز كما في تفسير ابن كثير ت سلامة (١/ ١٣٣)، ومرة لأبي العتاهية كما في البداية والنهاية ط هجر (١٤/ ٧٧)، ونسب لمحمود الوراق كما في ترتيب الأمالي الخميسية للشجري (١/ ٤٤).

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الشَّهَادَةَ تَكُونُ بِالْفِعْلِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧]. فَهَذِهِ شَهَادَةٌ مِنْهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِمَا يَفْعَلُونَهُ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَشْهَدُ بِمَا جَعَلَ آيَاتِهِ الْمَخْلُوقَةَ دَالَّةً عَلَيْهِ، وَدَلَالَتُهَا إِنَّمَا هِيَ بِخَلْقِهِ وَجَعْلِهِ.

وَأَمَّا مَرْتَبَةُ الْأَمْرِ بِذَلِكَ وَالْإِلْزَامِ بِهِ، وَأَنَّ مُجَرَّدَ الشَّهَادَةِ لَا يَسْتَلْزِمُهُ".

الأصل أن الشهادة غير الإلزام، فكيف تكون الشهادة هنا ملزمة، والجواب: أن الشهادة في غير هذا الموضع غير ملزمة، فإن القاضي هو الذي يلزم بناء على شهادة الشهود، أما هنا فهي ملزمة، لأنه سبحانه شهد بأمور تستوجب أن نعبده. فهو يشهد بإيجاده لنا وإنعامه علينا، وإرساله الرسل إلينا، وتسخيره لنا ما فيه صلاحنا، فكل هذه الأمور موجبة للشكر والعبادة. فإن لم نفعل ذلك فإنا

نكون قد وضعنا العبادة في غير موضعها، وإذا فعلنا ذلك فقد استحققنا العذاب، وإذا وضعنا العبادة في موضعها فقد استحققنا الأجر والثواب منه - سبحانه وتعالى - فضلا، فهو حق أحقه على نفسه، تفضلا منه على عباده، كما في حديث معاذ رضي الله عنه[١٢].

"لَكِنَّ الشَّهَادَةَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ تَدُلُّ عَلَيْهِ وَتَتَضَمَّنُهُ - فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ شَهِدَ بِهِ شَهَادَةَ مَنْ حَكَمَ بِهِ، وَقَضَى وَأَمَرَ وَأَلْزَمَ عِبَادَهُ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]. وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [النحل: ٥١].

---

(١٢) وهو في: صحيح البخاري (٤/ ٢٩) ح(٢٨٥٦)، صحيح مسلم (١/ ٥٨) ح٤٩ - (٣٠) ولفظه: عن معاذ رضي الله عنه، قال: كنت ردف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار يقال له عفير، فقال: «يا معاذ، هل تدري حق الله على عباده، وما حق العباد على الله؟»، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا»، فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر به الناس؟ قال: «لا تبشرهم، فيتكلوا».

وقَالَ تعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [التوبة: ٣١]. وَقَالَ تعَالَى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الإسراء: ٢٢]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [القصص: ٨٨]. وَالْقُرْآنُ كُلُّهُ شَاهِدٌ بِذَلِكَ.

وَوَجْهُ اسْتِلْزَامِ شَهَادَتِهِ سُبْحَانَهُ لِذَلِكَ: أَنَّهُ إِذَا شَهِدَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَقَدْ أَخْبَرَ وَبَيَّنَ وَأَعْلَمَ وَحَكَمَ وَقَضَى أَنَّ مَا سِوَاهُ لَيْسَ بِإِلَهٍ، وَأَنَّ إِلَهِيَّةَ مَا سِوَاهُ بَاطِلَةٌ، فَلَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ سِوَاهُ، كَمَا لَا تَصْلُحُ الْإِلَهِيَّةُ لِغَيْرِهِ، وَذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ الْأَمْرَ بِاتِّخَاذِهِ وَحْدَهُ إِلَهًا، وَالنَّهْيَ عَنِ اتِّخَاذِ غَيْرِهِ مَعَهُ إِلَهًا، وَهَذَا يَفْهَمُهُ الْمُخَاطَبُ مِنْ هَذَا النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، كَمَا إِذَا رَأَيْتَ رَجُلًا يَسْتَفْتِي رَجُلًا أَوْ يَسْتَشْهِدُهُ أَوْ يَسْتَطِبُّهُ وَهُوَ لَيْسَ أَهْلًا لِذَلِكَ، وَيَدَعُ مَنْ هُوَ أَهْلٌ لَهُ، فَتَقُولُ: هَذَا لَيْسَ بِمُفْتٍ وَلَا شَاهِدٍ وَلَا طَبِيبٍ، الْمُفْتِي فُلَانٌ، وَالشَّاهِدُ فُلَانٌ، وَالطَّبِيبُ فُلَانٌ، فَإِنَّ هَذَا أَمْرٌ مِنْهُ وَنَهْيٌ".

أي أن سياق الكلام يبين أنه أراد بهذا الخبر وبهذه الشهادة: الأمر والنهي. فحين تقول هذا ليس بمفت فهذا الخبر والشهادة يتضمن النهي عن استفتائه والأمر باستفتاء غيره، وكذلك بقية الأمثلة.

"وَأَيْضًا: فَالْآيَةُ دَلَّتْ عَلَى أَنَّهُ وَحْدَهُ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ، فَإِذَا أَخْبَرَ أَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ، تَضَمَّنَ هَذَا الْإِخْبَارُ أَمْرَ الْعِبَادِ وَإِلْزَامَهُمْ بِأَدَاءِ مَا يَسْتَحِقُّ الرَّبُّ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، وَأَنَّ الْقِيَامَ بِذَلِكَ هُوَ خَالِصُ حَقِّهِ عَلَيْهِمْ.

وَأَيْضًا: فَلَفْظُ الْحُكْمِ وَالْقَضَاءِ يُسْتَعْمَلُ فِي الْجُمْلَةِ الْخَبَرِيَّةِ، وَيُقَالُ لِلْجُمْلَةِ الْخَبَرِيَّةِ: قَضِيَّةٌ، وَحُكْمٌ، وَقَدْ حُكِمَ فِيهَا بِكَذَا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات: ١٥١ – ١٥٤].

فَجَعَلَ هَذَا الْإِخْبَارَ الْمُجَرَّدَ مِنْهُمْ حُكْمًا وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ

﴿تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]. لَكِنَّ هَذَا حُكْمٌ لَا إِلْزَامَ مَعَهُ. وَالْحُكْمُ وَالْقَضَاءُ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مُتَضَمِّنٌ الْإِلْزَامَ"(١٣).

"وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ مُجَرَّدَ شَهَادَةٍ لَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنَ الْعِلْمِ بِهَا، وَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِهَا، وَلَمْ تَقُمْ عَلَيْهِمْ بِهَا الْحُجَّةُ. بَلْ قَدْ تَضَمَّنَتِ الْبَيَانَ لِلْعِبَادِ وَدَلَالَتَهُمْ وَتَعْرِيفَهُمْ بِمَا شَهِدَ بِهِ، كَمَا أَنَّ الشَّاهِدَ مِنَ الْعِبَادِ إِذَا كَانَتْ عِنْدَهُ شَهَادَةٌ وَلَمْ يُبَيِّنْهَا بَلْ كَتَمَهَا، لَمْ يَنْتَفِعْ بِهَا أَحَدٌ، وَلَمْ تَقُمْ بِهَا حُجَّةٌ.

وَإِذَا كَانَ لَا يُنْتَفَعُ بِهَا إِلَّا بِبَيَانِهَا، فَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ بَيَّنَهَا غَايَةَ الْبَيَانِ بِطُرُقٍ ثَلَاثَةٍ: السَّمْعِ، وَالْبَصَرِ، وَالْعَقْلِ.

---

(١٣) كل ما وضع بين علامتي التنصيص فهو من كلام ابن القيم في مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٤١٨-٤٢٣). وذلك من قوله فيما مضى" ثُمَّ التَّوْحِيدُ الَّذِي دَعَتْ إِلَيْهِ رُسُلُ ..." إلى قوله هنا " وَالْحُكْمُ وَالْقَضَاءُ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مُتَضَمِّنٌ الْإِلْزَامَ).

أَمَّا السَّمْعُ: فَبِسَمْعِ آيَاتِهِ الْمَتْلُوَّةِ الْمُبَيِّنَةِ لِمَا عَرَّفَنَا إِيَّاهُ مِنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ"[١٤] كُلِّهَا، الْوَحْدَانِيَّةِ وَغَيْرِهَا غَايَةَ الْبَيَانِ، لَا كَمَا يَزْعُمُهُ الْجَهْمِيَّةُ وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَمُعَطِّلَةِ بَعْضِ الصِّفَاتِ مِنْ دَعْوَى احْتِمَالَاتٍ تُوقِعُ فِي الْحَيْرَةِ تُنَافِي الْبَيَانَ الَّذِي وَصَفَ اللَّهُ بِهِ كِتَابَهُ الْعَزِيزَ وَرَسُولَهُ الْكَرِيمَ.

---

(١٤) ما بين علامتي التنصيص هو من كلام ابن القيم في مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٤٢٩-٤٣٠).

يقول أهل الكلام أن دلالة السمع ظنية وليست قطعية[١٥]، ومن حيرتهم زعمهم أن ظاهر نصوص الصفات يفيد التشبيه، قالوا لأننا مثلا لا نعرف في الشاهد يدا إلا وهي جارحة، ولو قلنا ذلك لكنا قد وصفنا الرب بالتركيب والجسمية والعرضية وما أشبه ذلك، وهذا لا يجوز.

فقيل لهم: فلماذا تثبتون سمعا وبصرا وعلما وقدرة، ونحن لا نرى ذلك في الشاهد إلا أعراضا قائمة بأجسام، وأنتم تنزهون الله عن الأعراض والأجسام معا، فلماذا إذا أثبتم هذا؟

قالوا: نحن نثبت هذا على وجه لا يستلزم أن تكون أعراضا.

---

(١٥) قال ابن القيم رحمه الله: "الفصل الرابع والعشرون: في ذكر الطواغيت الأربع التي هدم بها أصحاب التأويل الباطل معاقل الدين وانتهكوا بها حرمة القرآن ومحوا بها رسوم الإيمان: وهي قولهم: إن كلام الله وكلام رسوله أدلة لفظية لا تفيد علما ولا يحصل منها يقين ...". ثم رد شبهة ظنية النصوص من ثلاث وسبعين وجها انظرها في الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٢/٦٣٢ - ٧٩٣) فقد أجاد وأفاد رحمه الله.

فقال أهل السنة: ونحن نثبت ما أثبتناه - ومنه الوجه واليدين - بدون أن تكون أعراضا، وعلى وجه لا تستلزم التجسيم، وذلك عندنا معقول، كما أنه معقول عندكم أن تثبتوا ما أثبتم ولا تكون أعراضا.

ولهذا الناس فريقان: فريق معطل إلى نهاية التعطيل، وهم غلاة الجهمية من المعتزلة وغيرهم، وفريق مثبتون وهم أهل السنة، ولكن نبتت نابتة بين الفريقين، تدعي الوسطية، فأثبتت بعض الصفات ونفت البعض الآخر، وهؤلاء ليس أمامهم - كما يقول ابن القيم[١٦]- إلا النفي المطلق أو الإثبات المطلق، أو التناقض الذي لا تثبت لصاحبه قدم، فإن حجته تكون من أضعف الحجج.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الزخرف: ١، ٢] ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١] ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر: ١] ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨] ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا

---

(١٦) انظر: الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (١/ ٢٣٠).

﴿الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢] ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وهذا مما يبين بطلان قول هؤلاء المعطلة ومن على شاكلتهم، ممن يزعمون أن ظواهر النصوص تحتمل احتمالات توقع في الحيرة، إذ قد وصف الله كتابه في مواضع كثيرة بأنه بيان[١٧]، وأنه مبين[١٨]، وأنه شفاء[١٩]، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[٢٠].

وهل استفدنا الاعتقاد في الإسلام من الرسول – عليه الصلاة والسلام – أم من عقولكم؟!

---

(١٧) كما في قوله تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

(١٨) كما في قوله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر: ١].

(١٩) كما في قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

(٢٠) كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

وهل كنتم بحاجة إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - أم أنكم كنتم ستعرفون الله بالتفصيل من خلال عقولكم بدون حاجة إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام -؟.

وَكَذَلِكَ السُّنَّةُ تَأْتِي مُبَيِّنَةً أَوْ مُقَرِّرَةً لِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ، لَمْ يُحْوِجْنَا رَبُّنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى رَأْيِ فُلَانٍ، وَلَا إِلَى ذَوْقِ فُلَانٍ وَوَجْدِهِ فِي أُصُولِ دِينِنَا.

وَلِهَذَا نَجِدُ مَنْ خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ مُخْتَلِفِينَ مُضْطَرِبِينَ. بَلْ قَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. فَلَا يَحْتَاجُ فِي تَكْمِيلِهِ إِلَى أَمْرٍ خَارِجٍ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ الشَّيْخُ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّحَاوِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِيمَا يَأْتِي مِنْ كَلَامِهِ بِقَوْلِهِ: (لَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتَأَوِّلِينَ بِآرَائِنَا، وَلَا مُتَوَهِّمِينَ بِأَهْوَائِنَا، فَإِنَّهُ مَا سَلِمَ فِي دِينِهِ إِلَّا مَنْ سَلَّمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

وَأَمَّا آيَاتُهُ الْعِيَانِيَّةُ.

أي: المرئية بالعين.

الْخَلْقِيَّةُ: فَالنَّظَرُ فِيهَا وَالِاسْتِدْلَالُ بِهَا يَدُلُّ عَلَى مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ آيَاتُهُ الْقَوْلِيَّةُ السَّمْعِيَّةُ، "وَالْعَقْلُ يَجْمَعُ بَيْنَ هَذِهِ وَهَذِهِ، فَيَجْزِمُ بِصِحَّةِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، فَتَتَّفِقُ شَهَادَةُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْعَقْلِ وَالْفِطْرَةِ"(٢١).

مثال ذلك: أنَّا نجد في القرآن بأن الله سبحانه وتعالى يصف نفسه بأنه حي، ونشاهد في العالم الأحياء، فهؤلاء الأحياء ليست حياتهم من أنفسهم بل من الله، فالعقل يقول، والعيان يقول: لو لم يكن الرب حيا لكان من المستحيل أن يهب الحياة؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

ونسمع القرآن يصف الله بأنه عليم حكيم، ثم نشاهد عالما محكما مخلوقا بعلم، فيدل على علم وحكمة صانعه. وهكذا نسمع القرآن يصف عظمة الله ونرى عظمة الكون، ونسمع القرآن يصف الله بالرحمة ونشاهد أثارها في الكون.

---

(٢١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٤٣٠).

فتبين أن هناك اتفاقا بين الكتاب المقروء والكتاب المنظور. كل ذلك بالإضافة إلى ما فطر الله الإنسان عليه.

مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا وَمَعَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ

"فَهُوَ سُبْحَانَهُ لِكَمَالِ عَدْلِهِ وَرَحْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ وَحِكْمَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ لِلْعُذْرِ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ – لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إِلَّا وَمَعَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ [النحل: ٤٣، ٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧].

حَتَّى إِنَّ مِنْ أَخْفَى آيَاتِ الرُّسُلِ آيَاتُ هُودٍ، حَتَّى قَالَ لَهُ قَوْمُهُ: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣]، وَمَعَ هَذَا فَبَيِّنَتُهُ مِنْ أَوْضَحِ الْبَيِّنَاتِ لِمَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ لِتَدَبُّرِهَا، وَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهَا بِقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي

أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦]. فَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْآيَاتِ: أَنَّ رَجُلًا وَاحِدًا يُخَاطِبُ أُمَّةً عَظِيمَةً بِهَذَا الْخِطَابِ، غَيْرَ جَزِعٍ وَلَا فَزِعٍ وَلَا خَوَّارٍ، بَلْ هُوَ وَاثِقٌ بِمَا قَالَهُ، جَازِمٌ بِهِ.

فَأَشْهَدَ اللَّهَ أَوَّلًا عَلَى بَرَاءَتِهِ مِنْ دِينِهِمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ، إِشْهَادَ وَاثِقٍ بِهِ مُعْتَمِدٍ عَلَيْهِ، مُعْلِمٍ لِقَوْمِهِ أَنَّهُ وَلِيُّهُ وَنَاصِرُهُ وَغَيْرُ مُسَلِّطٍ لَهُمْ عَلَيْهِ.

ثُمَّ أَشْهَدَهُمْ إِشْهَادَ مُجَاهِرٍ لَهُمْ بِالْمُخَالَفَةِ أَنَّهُ بَرِيءٌ مِنْ دِينِهِمْ وَآلِهَتِهِمُ الَّتِي يُوَالُونَ عَلَيْهَا وَيُعَادُونَ عَلَيْهَا وَيَبْذُلُونَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فِي نُصْرَتِهِمْ لَهَا.

ثُمَّ أَكَّدَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ بِالِاسْتِهَانَةِ بِهِمْ وَاحْتِقَارِهِمْ وَازْدِرَائِهِمْ. وَلَوْ يَجْتَمِعُونَ كُلُّهُمْ عَلَى كَيْدِهِ وَشِفَاءِ غَيْظِهِمْ مِنْهُ، ثُمَّ يُعَاجِلُونَهُ وَلَا يُمْهِلُونَهُ[1].

ثُمَّ قَرَّرَ دَعْوَتَهُمْ أَحْسَنَ تَقْرِيرٍ، وَبَيَّنَ أَنَّ رَبَّهُ تَعَالَى وَرَبَّهُمُ الَّذِي نَوَاصِيهِمْ بِيَدِهِ هُوَ وَلِيُّهُ وَوَكِيلُهُ الْقَائِمُ بِنَصْرِهِ وَتَأْيِيدِهِ، وَأَنَّهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، فَلَا يَخْذُلُ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَأَقَرَّ بِهِ، وَلَا يُشْمِتُ بِهِ أَعْدَاءَهُ"[2].

فهذه الآية – وإن كانت خفية – إلا أنها في غاية القوة، فهؤلاء الناس كانوا يفتخرون بقوتهم ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ

---

(١) في نسخة ط الأوقاف السعودية (ص: ٤٧)، ط دار السلام (ص: ٩٤) زيادة "لم يقدروا على ذلك إلا ما كتبه الله عليه" وفي المدارج (٣/ ٤٣١) – الذي هو أصل هذا النقل – " وفي ضمن ذلك: أنهم أضعف وأعجز وأقل من ذلك، وأنكم لو رمتموه لانقلبتم بغيظكم مكبوتين مخذولين".

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٤٣٢).

أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥] وقال تعالى عنهم ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠] وقال تعالى ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٨].

فجاء هذا النبي الكريم يقول لهم، إن آيتي على صدق رسالتي، أنني أصرح ببطلان ألوهية آلهتكم، وأنها لا تضر ولا تنفع، والدليل على ذلك: أني أطلب منكم ومنها وأتحداكم جميعا، أن تضروني بشيء، ها أنا أمامكم، فلم يستطيعوا أن يصلوا إليه بسوء، ومنعه الله منهم، وأخذ الله بنواصيهم بحيث لم يستطيعوا أن يصلوا إلى نبيه هود عليه السلام.

هذا مع ما سبق بيانه من قوتهم وشدة بأسهم، فهذه آية عظيمة جدا، دالة على صدق رسالته، وعلى أنه نبي من عند الله، وعلى صدق دعوته لهم إلى عبادة الله وحده، قال الله تعالى عنه ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥] لا تؤخروني عن الهلاك إن قدرتم على ذلك، ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ

دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٦] لا تستطيعوا أن تصلوا إلي بسوء؛ لأن نواصيكم بيد الله.

فلم يستطع أحد منهم أن يصل إليه بأذى، وهذا يسمى دليل الصرفة، وذلك أن يكون في كامل قواه ومع هذا لا يستطيع أن يمد يده للخصم، ويشبه هذا آية زكريا - عليه السلام - ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١] وهذا مع سلامة قواه، كان يريد أن يتكلم ومع هذا لا يستطيع أن يتكلم(٣).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٢/ ٣٩).

مسألة: هل منع الناس وقريش معها أن تأتي بمثل القرآن أو بمثل سورة منه هو من هذا النوع؟

الجواب: زعم بعض المبتدعة أنه من هذا النوع، قالوا أنهم كانوا قادرين على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، ولكن الله منعهم صرفة(٤).

(٤) ينسب إلى "النظام من المعتزلة وكثير من المعتزلة، ونسبه الخفاجي إلى أبي إسحاق الإسفرائيني، ونسبه عياض إلى أبي الحسن الأشعري ولكنه لم يشتهر عنه، وقال به الشريف المرتضى من الشيعة كما في «المقاصد»" اهـ التحرير والتنوير (١/ ٣٤٧)، وهو رأي ابن حزم كما في رسائل ابن حزم (٤/ ٣٥٢)، الفصل في الملل والأهواء والنحل (٣/ ١٢).

والمراد بالصرفة: "أن الله صرف قلوب الأمم عن معارضته مع قيام المقتضي التام". الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (٥/ ٤٢٩).

وهذا القول غير صحيح، بل الصحيح أن إعجاز القرآن شيء آخر، وهو أنه في ذاته بليغ فصيح، بحيث لو أراد أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء أن يحاول المجيء بمثله فإنه لا يستطيع، لقوة وبلاغة القرآن، فليس بالصرفة منعوا، وإنما بالعجز الحقيقي[٥].

"فَأَيُّ آيَةٍ وَبُرْهَانٍ أَحْسَنُ مِنْ آيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ – عَلَيْهِمُ السَّلَامُ – وَبَرَاهِينِهِمْ وَأَدِلَّتِهِمْ؟ وَهِيَ شَهَادَةٌ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لَهُمْ، بَيَّنَهَا لِعِبَادِهِ غَايَةَ الْبَيَانِ"[٦].

"وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى الْمُؤْمِنُ وَهُوَ فِي أَحَدِ التَّفْسِيرَيْنِ: الْمُصَدِّقُ الَّذِي يُصَدِّقُ الصَّادِقِينَ بِمَا يُقِيمُ لَهُمْ مِنْ شَوَاهِدِ صِدْقِهِمْ"[٧].

---

(٥) انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (٥/ ٤٢٩-٤٣٦) فقد جعل القول بالصرف هنا من أضعف الأقوال وقال "فالصواب المقطوع به أن الخلق كلهم عاجزون عن معارضته لا يقدرون على ذلك ولا يقدر محمد نفسه من تلقاء نفسه على أن يبدل سورة من القرآن" المصدر السابق (٥/ ٤٣١).

(٦) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٤٣٢).

(٧) المصدر السابق (٣/ ٤٣٢).

وهذا يدل على أن التصديق من معاني الإيمان، ولكن ليس الإيمان منحصرا في هذا المعنى، فيقولون المؤمن: المصدق عباده، لكن هو مصدق عباده بأقواله وأفعاله، فدل ذلك على أن الإيمان يكون بالقول ويكون بالفعل، فهو سبحانه يصدق أنبياءه وأولياءه؛ بأن ينصرهم ويخذل عدوهم، ويظهر على أيديهم المعجزات، فهذا تصديق بالفعل[٨].

ولو سلمنا للمتكلمين أن الإيمان هو التصديق، - ونحن لا نسلم بذلك بل الإيمان في اللغة هو: الإقرار[٩] الذي يتضمن الالتزام والإخبار – لكن حتى لو قلنا أن الإيمان هو التصديق، فالتصديق يكون بالقول وبالفعل، قال تعالى في صفة نفسه ﴿الْمُؤْمِنُ﴾

(٨) كما قرر هذا المعنى ابن قيم الجوزية في مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٤٣٢).

(٩) كما قرر ذلك شيخ الإسلام في كتاب الإيمان الكبير من مجموع الفتاوى (٧/ ١٢٢ -١٢٣-٢٩١).

[الحشر: ٢٣]. قالوا في تفسيره أي يصدق عباده بآياته[١٠] الشرعية والكونية التي يظهرها على أيديهم فتكون لهم آيات ومعجزات[١١].

وقد استدل طائفة من أهل السنة على كون التصديق يكون بالفعل بقوله - صلى الله عليه وسلم - «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان المنطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك كله ويكذبه»[١٢] متفق عليه، فسمى فعل الفرج تصديقا[١٣].

---

(١٠) انظر: تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٥٤)، وفيه أقوال أخرى انظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٢٦٤).

(١١) وقرر هذا المعنى ابن القيم في مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٤٣٢).

(١٢) صحيح البخاري (٨/ ٥٤) ح(٦٢٤٣)، صحيح مسلم (٤/ ٢٠٤٦) ح ٢٠ - (٢٦٥٧).

(١٣) وانظر: الإيمان لابن تيمية (ص: ١٠١)، مجموع الفتاوى (٧/ ٢٩٣)، مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٧٧)، شرح العقيدة الأصفهانية (ص: ١٩٦).

"فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يُرِيَ الْعِبَادَ مِنَ الْآيَاتِ الْأُفُقِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ مَا يُبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّ الْوَحْيَ الَّذِي بَلَّغَتْهُ رُسُلُهُ حَقٌّ قَالَ تَعَالَى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]: أَيِ الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ هُوَ الْمُتَقَدِّمُ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [فصلت: ٥٢]، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]. فَشَهِدَ سُبْحَانَهُ لِرَسُولِهِ بِقَوْلِهِ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ حَقٌّ، وَوَعَدَ أَنْ يُرِيَ الْعِبَادَ مِنْ آيَاتِهِ الْفِعْلِيَّةِ الْخَلْقِيَّةِ مَا يَشْهَدُ بِذَلِكَ أَيْضًا. ثُمَّ ذَكَرَ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ وَأَجَلُّ، وَهُوَ شَهَادَتُهُ سُبْحَانَهُ بِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ، فَإِنَّ مِنْ أَسْمَائِهِ الشَّهِيدَ الَّذِي لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ، بَلْ هُوَ مُطَّلِعٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُشَاهِدٌ لَهُ، عَلِيمٌ بِتَفَاصِيلِهِ.

وَهَذَا اسْتِدْلَالٌ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَالْأَوَّلُ اسْتِدْلَالٌ بِقَوْلِهِ وَكَلِمَاتِهِ، وَاسْتِدْلَالٌ بِالْآيَاتِ الْأُفُقِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ اسْتِدْلَالٌ بِأَفْعَالِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ.

الاِسْتِدْلَالُ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يُسْتَدَلُّ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، فَإِنَّ الِاسْتِدْلَالَ بِذَلِكَ لَا يُعْهَدُ فِي الِاصْطِلَاحِ؟

فَالْجَوَابُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَوْدَعَ فِي الْفِطَرِ الَّتِي لَمْ تَتَنَجَّسْ بِالْجُحُودِ وَالتَّعْطِيلِ، وَلَا بِالتَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ، أَنَّهُ سُبْحَانَهُ الْكَامِلُ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَأَنَّهُ الْمَوْصُوفُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصَفَهُ بِهِ رُسُلُهُ، وَمَا خَفِيَ عَنِ الْخَلْقِ مِنْ كَمَالِهِ أَعْظَمُ وَأَعْظَمُ مِمَّا عَرَفُوهُ مِنْهُ.

وَمِنْ كَمَالِهِ الْمُقَدَّسِ شَهَادَتُهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَاطِّلَاعُهُ عَلَيْهِ، بِحَيْثُ لَا يَغِيبُ عَنْهُ ذَرَّةٌ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا. وَمَنْ هَذَا شَأْنُهُ كَيْفَ يَلِيقُ بِالْعِبَادِ أَنْ يُشْرِكُوا بِهِ، وَأَنْ يَعْبُدُوا غَيْرَهُ وَيَجْعَلُوا مَعَهُ إِلَهًا آخَرَ؟ وَكَيْفَ يَلِيقُ بِكَمَالِهِ أَنْ يُقِرَّ مَنْ يَكْذِبُ عَلَيْهِ أَعْظَمَ الْكَذِبِ، وَيُخْبِرَ عَنْهُ بِخِلَافِ مَا الْأَمْرُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَنْصُرَهُ عَلَى ذَلِكَ وَيُؤَيِّدَهُ وَيُعْلِيَ شَأْنَهُ، وَيُجِيبَ دَعْوَتَهُ

وَيُهْلِكَ عَدُوَّهُ، وَيُظْهِرَ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْآيَاتِ وَالْبَرَاهِينِ مَا يَعْجزُ عَنْ مَثَلِهِ قُوَى الْبَشَرِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ كَاذِبٌ عَلَيْهِ مُفْتَرٍ؟!" .

وهذا يشبه استدلالنا على بطلان مذهب الرافضة وأن عقيدتهم طعن في الإسلام، حيث نقول: كيف يترك الله رسوله – عليه الصلاة والسلام – يستوزر أناسا ليسوا مؤمنين حقيقة، فيكون وزيراه أبا بكر وعمر، وهم بحسب اعتقاد الرافضة ليسوا من أهل الإيمان، ثم لا يكشف الله أمرهم؟![١٤].

(١٤)كما نقل ذلك ابن تيمية عن الإمام مالك وقرره في الصارم المسلول على شاتم الرسول (ص: ٥٨٠).

"وَمَعْلُومٌ أَنَّ شَهَادَتَهُ سُبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَقُدْرَتَهُ وَحِكْمَتَهُ وَعِزَّتَهُ وَكَمَالَهُ الْمُقَدَّسَ يَأْبَى ذَلِكَ. وَمَنْ جَوَّزَ ذَلِكَ فَهُوَ مِنْ أَبْعَدِ النَّاسِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ.

وَالْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقِ، وَهِيَ طَرِيقُ الْخَوَاصِّ، يَسْتَدِلُّونَ بِاللَّهِ عَلَى أَفْعَالِهِ وَمَا يَلِيقُ بِهِ أَنْ يَفْعَلَهُ وَلَا يَفْعَلُهُ"، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ – ٤٧]. وَسَيَأْتِي لِذَلِكَ زِيَادَةُ بَيَانٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَيَسْتَدِلُّ أَيْضًا بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَعَلَى بُطْلَانِ الشِّرْكِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣]. وَأَضْعَافُ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ"[١].

وَهَذِهِ الطَّرِيقُ قَلِيلٌ سَالِكُهَا، لَا يَهْتَدِي إِلَيْهَا إِلَّا الْخَوَاصُّ، وَطَرِيقَةُ الْجُمْهُورِ الِاسْتِدْلَالُ بِالْآيَاتِ الْمُشَاهَدَةِ، لِأَنَّهَا أَسْهَلُ تَنَاوُلًا وَأَوْسَعُ. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يُفَضِّلُ بَعْضَ خَلْقِهِ عَلَى بَعْضٍ.

ومن ذلك قوله ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦] فيستدل به على أن خالق العالم واحد، لأنه لا بد أن يكون الإله قهارا، فإذا فرضنا أن هناك إله يناده ويضاده فما قهره، أو أحدهما لم يقهر الآخر، فلا يكون مستحقا للألوهية إلا الواحد القهار، الذي يقهر الآخرين[٢]، حتى ذكروا في تفسير قوله تعالى ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ

---

(١) قوله "فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يُرِيَ الْعِبَادَ مِنَ الْآيَاتِ الْأُفُقِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ" إلى "وَأَضْعَافُ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ" كله من مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٤٣٢-٤٣٣).

(٢) قال ابن القيم: "والقهر التام يستلزم الوحدة فإن الشركة تنافي تمام القهر" الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٢/ ٤٦٦).

إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٤٢] أي لكانوا عبيدا له يبتغون السبيل الذي يقربهم إلى مرضاته، ولكان قاهرا لهم[٣].

فَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ قَدِ اجْتَمَعَ فِيهِ مَا لَمْ يَجْتَمِعْ فِي غَيْرِهِ، فَإِنَّهُ الدَّلِيلُ وَالْمَدْلُولُ عَلَيْهِ، وَالشَّاهِدُ وَالْمَشْهُودُ لَهُ. قَالَ تَعَالَى لِمَنْ طَلَبَ آيَةً تَدُلُّ عَلَى صِدْقِ رَسُولِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

[العنكبوت: ٥١].

ففي القرآن دليل على صدق القرآن نفسه، ودليل على صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فلما طلبوا آية قال ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١] وفيه الاعجاز اللفظي والتشريعي والإخباري، وغير ذلك من أنواع الإعجاز، فهو الدليل والمدلول عليه، وشهادته لنفسه تصل حد الاعجاز، بحيث يقف الآخرون منه موقف المقرين، أو موقف المكابرين المباهتين.

---

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٥/ ٧٨).

أَكْمَلُ النَّاسِ تَـوْحِـيـدًا الْأَنْـبِـيَـاءُ وَالْمُرْسَلُونَ

وَإِذَا عُرِفَ أَنَّ تَوْحِيدَ الْإِلَهِيَّةِ هُوَ التَّوْحِيدُ الَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَأُنْزِلَتْ بِهِ الْكُتُبُ، كَمَا تَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ الْإِشَارَةُ – فَلَا يُلْتَفَتُ إِلَى قَوْلِ مَنْ قَسَّمَ التَّوْحِيدَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ، وَجَعَلَ هَذَا النَّوْعَ تَوْحِيدَ الْعَامَّةِ، وَالنَّوْعَ الثَّانِيَ تَوْحِيدَ الْخَاصَّةِ، وَهُوَ الَّذِي يَثْبُتُ بِالْحَقَائِقِ، وَالنَّوْعَ الثَّالِثَ تَوْحِيدٌ قَائِمٌ بِالْقِدَمِ، وَهُوَ تَوْحِيدُ خَاصَّةِ الْخَاصَّةِ(٤).

فيشير المؤلف هنا إلى الصوفية، وخلاصة توحيد الخاصة عند الصوفية أنه عبارة عن: استغراق الذهن والفكر في عموم مشيئة الله وقدرته وخلقه، وكون كل مخلوق لا يتحرك إلا بإذنه، وشهود كون كل ما يجري في الكون من خير وشر وطاعة ومعصية واقع بمشيئته تعالى،

(٤) كما فعل أبو إسماعيل الأنصاري انظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٤٤٥).

ورتبوا على ذلك وجوب الخضوع والانقياد والتسليم، والفناء عن كل ما سواه، والانسجام مع ما يختاره لك، كما قال قائلهم(٥):

أصبحت منفعلاً لما يختاره ... مني ففعلي كله طاعات

فهذا فناء في ربوبية الله، فيخضعون لتوحيد الربوبية، ويرون أن ذلك هو التوحيد الذي أمر الله به(٦).

والتوحيد الذي أمر الله به، هو توحيد الربوبية مع توحيد الألوهية، فلا بد من التأله والتقرب إلى الله تعالى، وإلا فلا يكون الإنسان موحدا. كما سيأتي في أبيات أبي إسماعيل الأنصاري - من الصوفية - حيث غلا في تقرير توحيد الربوبية، واعتبر من يركز على توحيد الإلهية غير موحد.

---

(٥) نسبه شيخ الإسلام لابن إسرائيل انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٢٥٧)، وابن إسرائيل هذا هو: نجم الدين محمد بن سوار بن إسرائيل شاعر صوفي قال الصفدي: "وَأكْثر شعره الشمؤم مَمْلُوء من هَذِه الْمَقَاصِد" توفي سنة ٦٧٧ انظر: الوافي بالوفيات (٣/ ١٢٠-١٢١).

(٦) انظر: طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ١٦٤)، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص: ١٥).

"فَإِنَّ أَكْمَلَ النَّاسِ تَوْحِيدًا الْأَنْبِيَاءُ – صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ – وَالْمُرْسَلُونَ مِنْهُمْ أَكْمَلُ فِي ذَلِكَ، وَأُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ أَكْمَلُهُمْ تَوْحِيدًا، وَهُمْ: نُوحٌ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَمُحَمَّدٌ، – صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ –.

وَأَكْمَلُهُمْ تَوْحِيدًا الْخَلِيلَانِ: مُحَمَّدٌ وَإِبْرَاهِيمُ – صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا وَسَلَامُهُ – فَإِنَّهُمَا قَامَا مِنَ التَّوْحِيدِ بِمَا لَمْ يَقُمْ بِهِ غَيْرُهُمَا عِلْمًا، وَمَعْرِفَةً، وَحَالًا، وَدَعْوَةً لِلْخَلْقِ وَجِهَادًا، فَلَا تَوْحِيدَ أَكْمَلُ مِنَ الَّذِي قَامَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَدَعَوْا إِلَيْهِ، وَجَاهَدُوا الْأُمَمَ عَلَيْهِ.

وَلِهَذَا أَمَرَ سُبْحَانَهُ نَبِيَّهُ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ فِيهِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى – بَعْدَ ذِكْرِ مُنَاظَرَةِ إِبْرَاهِيمَ قَوْمَهُ فِي بُطْلَانِ الشِّرْكِ، وَصِحَّةِ التَّوْحِيدِ وَذِكْرِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ –: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾ [الأنعام: ٩٠] فَلَا أَكْمَلَ مِنْ تَوْحِيدِ مَنْ أُمِرَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ.

وَكَانَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ إِذَا أَصْبَحُوا أَنْ يَقُولُوا: «أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ، وَكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ، وَدِينِ

نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَمِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»(٧) .

فَمِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ: التَّوْحِيدُ، وَدِينُ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : مَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَوْلًا وَعَمَلًا وَاعْتِقَادًا. وَكَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ: هِيَ شَهَادَةُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَفِطْرَةُ الْإِسْلَامِ: هِيَ مَا فَطَرَ عَلَيْهِ عِبَادَهُ مِنْ مَحَبَّتِهِ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالِاسْتِسْلَامُ لَهُ عُبُودِيَّةً وَذُلًّا وَانْقِيَادًا وَإِنَابَةً.

فَهَذَا تَوْحِيدُ خَاصَّةِ الْخَاصَّةِ، الَّذِي مَنْ رَغِبَ عَنْهُ فَهُوَ مِنْ أَسْفَهِ السُّــــفَهَاءِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَــفِهَ نَفْسَـــهُ وَلَقَدِ اصْـــطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ

---

(٧) مسند أحمد ط الرسالة (٢٤/ ٧٧) ح(١٥٣٦٠). وصححه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء = المغني عن حمل الأسفار (ص: ٣٨٩).

الصَّـــالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْـــلِمْ قَالَ أَسْـلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠، ١٣١]"[٨].

صَـــاحِـبُ الْحِسِّ السَّلِيمِ وَالْـعَـقْـلِ الْمُمَيِّزِ لَيْسَ بِحَـاجَـةٍ إِلَى طَرِيقَـةِ أَهْـلِ الْكَلَامِ

"وَكُلُّ مَنْ لَهُ حِسٌّ سَلِيمٌ وَعَقْلٌ يُمَيِّزُ بِهِ، يَحْتَاجُ[٩] فِي الِاسْتِدْلَالِ إِلَى أَوْضَاعِ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالْجَدَلِ وَاصْطِلَاحِهِمْ وَطُرُقِهِمْ الْبَتَّةَ، بَلْ رُبَّمَا يَقَعُ بِسَبَبِهَا فِي شُكُوكٍ وَشُبَهٍ يَحْصُلُ لَهُ بِهَا الْحَيْرَةُ وَالضَّلَالُ وَالرِّيبَةُ".

عكس عليهم قولهم حيث زعموا أن الدليل اللفظي ظني، لا يفيد يقينا، وأن نصوص القرآن توقع في الحيرة، فقال بل العكس هو الصحيح وهو أن الطرق الكلامية هي التي توقع في الحيرة.

---

(٨) ما بين علامتي التنصيص من مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/٤٤٥- ٤٤٦).

(٩) هكذا في شرح الطحاوية ت الأرناؤوط (١/ ٥٥) بالإثبات، وأما في شرح الطحاوية – ط دار السلام (ص: ٩٧)، شرح الطحاوية – ط الأوقاف السعودية (ص: ٥١)، فبالنفي هكذا "لا يحتاج"، وكذلك هو في مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٤٥١) الذي هو أصل هذا النقل.

وهذا صحيح فأهل الكلام هم الذين اشتكوا وأما نحن أهل السنة والجماعة فعجائزنا لم يشتكين من أي شكوك أو شبهات فضلا عن طلبة العلم والعلماء فينا، أما هم فكبراؤهم يشتكون حتى يقول أحدهم ليتني أموت على عقيدة أمي، وآخر يتمنى أن يموت على عقائد ودين عجائز نيسابور(١٠).

---

(١٠) ذكرها المؤلف في شرح الطحاوية ت الأرناؤوط (١/ ٢٤٥)، كما ساقها الذهبي بالسند إلى أبي المعالي ابن الجويني في كتابه: العلو للعلي الغفار (ص: ٢٥٨)، وصححها المعلمي في القائد إلى تصحيح العقائد (ص: ٧٠) وقال بعدها: "فتدبر كلام هذا الرجل الذي طبقت شهرته الأرض يتضح لك منه أمور:
الأول: حسن ثقته بصحة اعتقاد العجائز وبأنه مقتضٍ للنجاة.
الثاني: سقوط ثقته بما يخالف ذلك من قضايا النظر المتعمق فيه وجزمه بأن اعتقاد تلك القضايا مقتض لويل والهلاك.
الثالث: أنه مع ذلك يرى أن حاله دون حال العجائز لأنهن بقين على الفطرة وسلمن من الشك والارتياب، ولزمن الصراط، وثبتن على السبيل، فرجى لهن أن يكتب الله **تعالى** في قلوبه الإيمان، ويؤيدهن بروح منه، فلهذا يتمنى أن يعود إلى مثل حالهن، وإذا كانت هذه حال العجائز، فما عسى أن يكون حال العلماء السلفيين".

فَإِنَّ التَّوْحِيدَ إِنَّمَا يَنْفَعُ إِذَا سَلِمَ قَلْبُ صَاحِبِهِ مِنْ ذَلِكَ، وَهَذَا هُوَ الْقَلْبُ السَّلِيمُ الَّذِي لَا يُفْلِحُ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِهِ"[١١].

وَلَا شَــكَّ أَنَّ النَّوْعَ الثَّانِيَ وَالثَّالِثَ مِنَ التَّوْحِيدِ الَّذِي ادَّعَوْا أَنَّهُ تَوْحِيدُ الْخَاصَّةِ وَخَاصَّةِ الْخَاصَّةِ، يَنْتَهِي إِلَى الْفَنَاءِ الَّذِي يُشَمِّرُ إِلَيْهِ غَالِبُ الصُّوفِيَّةِ، وَهُوَ دَرْبٌ خَطِرٌ، يُفْضِي إِلَى الِاتِّحَادِ.

انْظُرْ إِلَى مَا أَنْشَدَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَبُو إِسْمَاعِيلَ الْأَنْصَارِيُّ[١٢] – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى – حَيْثُ يَقُولُ:

---

(١١) ما بين علامتي التنصيص من مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/٤٥١– ٤٥٢) بشيء من التصرف وذلك من قوله " وَكُلُّ مَنْ لَهُ حِسٌّ" إلى قوله " لَا يُفْلِحُ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِهِ".

(١٢) قال الذهبي عنه "ولكنه له نفس عجيب لا يشبه نفس أئمة السلف في كتابه (منازل السائرين)، ففيه أشياء مطربة، وفيه أشياء مشكلة، ومن تأمله لاح له ما أشرت إليه، والسنة المحمدية صلفة، ولا ينهض الذوق والوجد إلا على تأسيس الكتاب والسنة. وقد كان هذا الرجل سيفا مسلولا على المتكلمين" سير أعلام النبلاء (٣٥/ ٤٨٦). وقال "وفي(منازله)إشارات إلى المحو والفناء، وإنما مراده بذلك الفناء هو الغيبة عن شهود السوى، ولم يرد محو السوى في الخارج، ويااليته لا صنف ذلك" سير أعلام النبلاء (٣٥/ ٤٨٧).

مَا وَحَّدَ الْوَاحِدَ مِنْ وَاحِدٍ إِذْ كُلُّ مَنْ وَحَّدَهُ جَاحِدُ
تَوْحِيدُ مَنْ يَنْطِقُ عَنْ نَعْتِهِ عَـارِيَّـةٌ أَبْطَلَهَـا الْوَاحِـدُ
تَـوْحِيــدُهُ إِيَّـاهُ تَـوْحِيــدُهُ وَنَعْتُ مَنْ يَنْعَتُهُ لَاحِدُ(١٣)

وفي كلامه في المنازل ما يقرر عقيدة الحلول والاتحاد، وقد يوجد في كلامه ما يجمع بين النقيضين وهذا موجود عند مجموعة من غلاة الصوفية، كابن عربي ففي الوقت الذي يتكلم فيه بمثل هذه الأشياء يسير على طريقة ابن حزم في الفقه، يتبع الدليل والحجة ولا يقلد مذهبا، وكذلك أبو إسماعيل الأنصاري كانت له عناية بجمع نصوص الصفات في كتاب بعنوان (الفاروق)، وكتاب (الأربعون في دلائل

---

(١٣) منازل السائرين (ص: ١٣٩)، وانظر نقدها في: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (٣/ ٣٢٥)، (٣/ ٣٨٦)، (٤/ ٤٩٦)،درء تعارض العقل والنقل (٥/ ١٧٠)، مجموع الفتاوى (٨/ ٣١٧)، منهاج السنة النبوية (٥/ ٣٤٦)، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ١٦٧)، (٣/ ٤١٧)، (٣/ ٤٧٤)، (٣/ ٤٧٨).

التوحيد)، وله كتاب بعنوان (ذم الكلام وأهله) طبع في خمسة مجلدات(١٤).

وخلاصة هذه الأبيات أنه ينفي أن يكون أحد قد وحد الله تعالى، ومعلوم أن هذا يتناول حتى الأنبياء، ولا شك في بطلان هذه الأبيات وما تضمنته.

وَإِنْ كَانَ قَائِلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ لَمْ يُرِدْ [بِهِ] الِاتِّحَادَ(١٥)، لَكِنْ ذَكَرَ لَفْظًا مُجْمَلًا مُحْتَمَلًا جَذَبَهُ بِهِ الِاتِّحَادِيُّ إِلَيْهِ، وَأَقْسَمَ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِ إِنَّهُ مَعَهُ(١٦)، وَلَوْ سَلَكَ الْأَلْفَاظَ الشَّرْعِيَّةَ الَّتِي لَا إِجْمَالَ فِيهَا كَانَ أَحَقَّ، مَعَ أَنَّ الْمَعْنَى الَّذِي حَامَ حَوْلَهُ لَوْ كَانَ مَطْلُوبًا مِنَّا لَنَبَّهَ الشَّارِعُ عَلَيْهِ وَدَعَا النَّاسَ إِلَيْهِ وَبَيَّنَهُ، فَإِنَّ عَلَى الرَّسُولِ الْبَلَاغَ

---

(١٤) قال ابن القيم "ومن أراد معرفة صلابته في السنة والإثبات فليطالع كتابيه الفاروق وذم الكلام" اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية (ص: ١٧٦).

(١٥) كما ذكر ذلك ابن القيم في مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ١٧٠)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (٣٥/ ٤٨٧). **قال شيخنا – رحمه الله –**: وهذا خلاف الظاهر.

(١٦) انظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ١٦٨).

الْمُبِينَ، فَأَيْنَ قَالَ الرَّسُولُ: هَذَا تَوْحِيدُ الْعَامَّةِ، وَهَذَا تَوْحِيدُ الْخَاصَّةِ، وَهَذَا تَوْحِيدُ خَاصَّةِ الْخَاصَّةِ؟ أَوْ مَا يَقْرُبُ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى؟ أَوْ أَشَارَ إِلَيْهِ.

هَذِهِ النُّقُولُ وَالْعُقُولُ حَاضِرَةٌ.

ذَمُّ الْغُلُوِّ فِي الدِّينِ

فَهَذَا كَلَامُ اللَّهِ الْمُنَزَّلُ عَلَى رَسُولِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَهَذِهِ سُنَّةُ الرَّسُولِ، وَهَذَا كَلَامُ خَيْرِ الْقُرُونِ بَعْدَ الرَّسُولِ، وَسَادَاتِ الْعَارِفِينَ مِنَ الْأَئِمَّةِ، هَلْ جَاءَ ذِكْرُ الْفَنَاءِ فِيهَا، وَهَذَا التَّقْسِيمُ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ؟ وَإِنَّمَا حَصَلَ هَذَا مِنْ زِيَادَةِ الْغُلُوِّ فِي الدِّينِ، الْمُشْبِهِ لِغُلُوِّ الْخَوَارِجِ بَلْ لِغُلُوِّ النَّصَارَى فِي دِينِهِمْ.

الحلولية غلو في إثبات الربوبية، والخوارج غلو في إثبات الإلهية(١٧).

وَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى الْغُلُوَّ فِي الدِّينِ وَنَهَى عَنْهُ، فَقَالَ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١]، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا

(١٧) حيث كفروا من قارف الكبائر ونحو ذلك مما فيه ضعف التزام بتحقيق العبودية لله تعالى.

تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، وَقَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «لَا تُشَدِّدُوا فَيُشَدِّدَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شَدَّدُوا فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَتِلْكَ بَقَايَاهُمْ فِي الصَّوَامِعِ وَالدِّيَارَاتِ، رَهْبَانِيَّةٌ ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١٨).

---

(١٨) سنن أبي داود (٤/ ٢٧٦) ح(٤٩٠٤)، وصححه البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة (٤/ ٢٥٩). والألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٧/ ٣٣٢) ح(٣١٢٤) بعد أن كان قد ضعفه في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (٧/ ٤٦٧) ح(٣٤٦٨) قال "وقد وصلت أخيرًا إلى أنه صحيح" جلباب المرأة المسلمة في الكتاب والسنة (ص: ٢٠).